

# جرادكم بيضاء

عبد الحميد مصباح

قصة قصيرة

من

سلسلة غوامض ثلاثية

(عفريت عزيز)

## الفصل الأول

### (أين)

صمت مهيب يخيم على الغرفة، في ليلة من ليال الصيف الحارة نسبياً، لا يعكر هذا الصمت غير صوت دقات رتيبة لساعة حائط عتيقة تشير عقاربها الغير سامه معلنة الثالثة فجراً.

على نفس الحائط بقرب الساعة، معلقة دون ذنب لوحة تقويم "نتيجة"، وقدم تم هتك عرض كمية كبيرة من أوراقها بشكل غير آدمي، لتشير الورقة التي تعلق باقي الورق والمهددة بالإعدام في اليوم التالي إلى يوم الأربعاء الموافق الخامس والعشرين من شهر يونيو لعام "2003" وفقاً للتقويم الميلادي، ويوافق هجرياً الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر لعام "1424"، في صدفة لا تحدث كثيراً أن يتوافق التاريخين الهجري والميلادي سوياً.

يقطع هذا الصمت صوت قطط تتصارع في شرفة المنزل المطلة على الشارع يستيقظ بسببه (رمزي يوسف) مفزوعاً.

ذلك الشاب الذي يتجاوز الثلاثين من عمره، والذي يتسم بملامح حادة يكسوها خليط بين الجدية والوسامة، ذو قوام طويل بعض الشيء، ورغم الهدوء والوقار الذي يظلل عليه، لكن يعييه تسرعه وتهوره في بعض الأحيان والتي تقع في مشاكل كان في غنى عنها.

وفور قيامه ليبيدهم تقفز القطتان إلى الشارع، وتطارد إحداهما الأخرى. يلقي نظرة قصيرة عليهم من شرفة منزله. ذلك المنزل الذي ورثه عن والده دون منازع كونه الابن الوحيد له. يعود (رمزي) إلى نومه.

بعد دقائق يستيقظ مفزوعاً على صوت خشخشة مفاتيح، تصدر من أمام باب شفته بالخارج. فيعتدل ببطء حتى لا يوقظ زوجته وبنتهما الصغرى النائمتين بجواره.

يخرج من الغرفة على أنامل قدميه كالقطط المتجه نحو فريستها بحذر وسط الظلام الدامس. صوت عقرب الثواني على ساعة الحائط يتناغم مع خطواته بإيقاع متناسق.

يغلق الباب ببطء، ثم ينظر يمينا ويساراً. يتوجه نحو المطبخ فتقع عيناه على إحدى سكاكين الطهي فيسحبها بحذر حتى لا تصدر صوتاً. يتجه إلى غرفة أبنيه الذكور ويفتح الباب ليظمن عليهم يجدهم نائمين بكل سلام واستسلام.

يتوجه نحو باب الشقة بترقب وقلق شديد.

مازال صوت خشخشة المفاتيح ومحاولة فتح الباب من الخارج مستمرة .

"في تلك اللحظة يتذكر الحادثة التي وقعت له منذ أكثر من سبعة عشر عاماً.  
مع ذلك الشخص السكران المترنح الذي كان يسهر في أحد الملاهي الليلية القريبة من منزله، وخطأ في المنزل، وحاول فتح باب شقته بالقوة.  
ورغم محاولات (رمزي) معه لتجنب العراك بينهم، إلا أن الآخر أصر أن يدخل بالقوة.  
مما أدى إلى حتمية العراك بينهم، وتسبب الرجل السكران بجرح في رأس (رمزي) عندما ضربه بزجاجة فيها.  
فجن جنون (رمزي) عندما رأى الدم يتقطر من رأسه.  
فظل (رمزي) يبرح الرجل المخمور ضرباً كاد يؤدي بحياته".

ماذا إذا تكرر الموقف ذاته الان؟  
ماذا إذا لم يتغلب على الشخص الذي بالخارج قبل أن يغلبه؟  
وما مصير عائلته لو حدث له مكروه؟.

فيتقطر العرق من جبينه ويشعر بثقل قدميه ووخز في وجهه كأن كومه من الابن الصغيرة تتخلل بشرته، وشعر رأسه يكاد ينزع من فروته.

يجف حلقه كالصائم طوال النهار في أحد أيام الصيف الحارة في وسط الصحراء.  
أبتلع ريقه بصعوبة فشعر بمرارة تجرع لتراً من زلال الصبار، ثم استرجع تماسكه رويداً رويداً بعدما لاحت صور عائلته أمام عينيه.

اشتعلت بداخله مشاعر الأبوة ومسئوليته تجاه أسرته حال تعرضهم للخطر.  
نظر من العين السحرية في الباب فلم يره أحداً ومازال صوت خشخشة المفاتيح ومحاولة فتح الباب يجلجل في أذنيه.

أخذ نفساً ملئ صدره ببعض الشجاعة، ثم فتح الباب بسرعه وهو ممسك بالسكين في اليد الأخرى.

في ذهول وجد طفلاً صغيراً دون العاشرة، لم يتحرك (رمزي) وكأن قدميه التصقت بالأرض من الذعر من اثر الخضة.  
مسك (رمزي) برقبة الطفل وكادت تنخلع في يديه، وسط بكاء وصراخ الطفل، فبتركه.

هرع الطفل نازلاً على السلم عدواً بشكل هستيري فيهوي ويقع على وجهه.  
لم يصاب بجروح لكن ظل راكداً على السلم في حالة اغماء.

تخرج زوجة (رمزي) بعد استيقاظها مذعورة من صوت صراخ الطفل.  
تنظر إلى (رمزي) وهو ممسك بسكين وتنظر على السلم فتجد الطفل المغمي عليه.  
تقف متسمة كعواميد الانارة وتضع يدها على فمها مذهولة مما تراه.

يصرخ (رمزي) منادياً على ((زكريا)) حارس العقار النائم هو وزوجته في غرفة صغيرة  
بالدور الارضي للعقار.

ينطلق إليه (زكريا) وأثناء صعوده يجد الطفل ملقى على السلم فيتحصه سريعاً فيستفيق  
الطفل، ويستأنف بكائه مرة أخرى.

يحاول (زكريا) تهدئة الطفل ويربت عليه، فيصيح (رمزي) في (زكريا) بصوت عالي  
كالأوبرالين، ناهراً إياه.

انت لازمك ايه بالطبط؟، وازاي ده دخل هنا؟ "مشيرا إلى الطفل"  
وسايب باب العمارة مفتوح ليه؟

يرد (زكريا) ذو اللهجة الصعيدية المزوجة بلهجة قاطني القاهرة بنبرة خافتة ومنكسرة راجياً  
بها استعطاف (رمزي).

حقك عليا يا سعادة البية الجو حر، ففتحت الباب يجيب شوية هوا، وبعدين حضرتك الولد ده مش  
غريب ده ابن الباش مهندس (سامي) اللي ساكن في العمارة اللي قدام حضرتك، وتلاقيه كان  
بيلعب معلش يا بيه عيل صغير ما يعرفش حاجه.

يرد (رمزي) عليه بكل غضب.

الساعة تلاته الفجر "ويشير إلى معصمه"  
ومعاه مفاتيح بيحاول يفتح بيها الشقة وتقولى بيلعب.

قاطعته زوجته وربت على ظهره بلطف هامسة إليه بصوت هادئ ونبرة رقيقة لمحاولة  
تهدئته.

خلاص يا حبيبي، حصل خير ده طفل مش مسؤول عن تصرفاته.

وبعدما كاد أن يهدأ ويدرك بساطة الأمر، يتذكر الحالة التي كان عليها من خوف وهلع، من هذا النسناس الصغير (في أخلاقه وليس في خلقته) قبل فتحه للباب.

فيستثيب غضباً، وبوجه منتفخ ودامي من الاحمرار، وبعد أن أعطها السكنينة التي كان يحملها في يده ، يرد عليها.

اتفضلي ادخلي انتي عشان الاولاد، وانا هروح اتصرف مع ابوه، المسؤول عن تصرفاته.

ثم ينزل ويشير إلى الحارس أن يأتي ومعه الطفل، كضابط شرطة قبض على أخطر المجرمين الفارين في البلاد، متوجهاً إلى منزل المهندس (سامي) جاره.

يحاول الحارس تهدئة الطفل ويرمق (رمزي) بنظرات استعجاب لتحويله لهذا الموقف البسيط الذي لا يستدعي كل ذلك.

فيأمر (رمزي) (زكريا) بأن ينادي على المهندس (سامي) ، فينزل والد الطفل، هارحاً إلى ابنه، ليحضنه ويطمئن عليه ويمسح دموعه المنهمرة من عينيه كشلالات نياجرا. يستفسر من (رمزي) عن ما حدث.

يصيح (رمزي) متعصباً وهو يشرح ل (سامي) ما حدث، ويعاتبه على أخلاق ابنه المنحرفة.

"يصيح كالتباع (مساعد سائقي سيارات الاجرة) وهو ينادي على آخر فرد للكرسي الخالي بالكعبة الاخيرة في الوسط حتى تنطلق السيارة بعدما استغرقت وقتاً طويلاً لتمتلئ بالركاب".

فيقاطعه (سامي) مستنكراً لكلامه، مُظهراً رفضه وصف ابنه بالمنحرف، ويصيح قائلاً.

انا مسمحكش، ابني متربي كويس، اكيد في لبس فالموضوع.

ثم تمادي الأمر إلى الشد والجذب بينهما.

خاصة بعدما نزلت والدة الطفل وهي تصرخ على صغيرها المنهمر في البكاء.

"منساقه وراء غريزة الامومة لديها كأي ام تتحول إلى كائن بالغ الشراسة حتى لو كانت مرهفة الحس وشديدة الوداعة".

وانهالت على (رمزي) ببعض الألفاظ المهينة نسبياً، استشاط (رمزي) غضباً على غضب.

و غضب أكثر حين نظر حوله فوجد جمعاً من الجيران في النوافذ، وآخرين ملتفين حوله. الجميع استيقظوا بسبب الصوت العالي من الطرفين. شعر (رمزي) بحرج شديد بسبب اهانات والدة الطفل له.

ووسط محاولات لتهدئته من قبل (زكريا) "البواب" وبعض الجيران، ووالد الطفل الذي أحس بتمادي زوجته المفرط تجاه (رمزي).

أصر (رمزي) أن يتجه إلى قسم الشرطة ليحرر محضراً في أم الطفل بتهمة السب والقذف، وفي الطفل بتهمة محاولة سرقة شقته بناءً على تدبير والديه، نكالاً بأمه بسبب ما فعلته.

وصلوا إلى القسم وتوجه (رمزي) إلى الضابط النوبتجي، وشرح له ما حدث. استدعي الضابط والدان الطفل، واحتمهم على أن يعتذرا ل (رمزي)، لإمكانية مسائلتهم قانونياً بتهمة الإهمال و حتى لا يتمادي الأمر أكثر من ذلك، ففعلوا.

رغم ذلك أصر (رمزي) على تحرير المحضر، فسأل الضابط الوالدان عن سبب خروج ابنهم في هذه الساعة، ولماذا فعل ما فعل؟

نظرا (سامي) وزوجته إلى بعضهم البعض باحثين عن اجابة.

"كجنود السرية الفضية لمملكة زارا الباحثين عن (المختار من التاج العظيم) منذ مائتي عام".

فنادي الضابط على الطفل الصغير وأجلسه على المكتب، وبعد أن شعر بالأمان تجاه الضابط بسبب ابتسامه عريضة، و وعد بمكافئة ثمينة.

"أحد أنواع الشوكولاتة الفاخرة المحببة لدي الاطفال وتسوس الاسنان معاً".

بدأ بالتحدث مع الضابط بكل وداعه ولطافه، واخبره أن سبب خروجه، انه استيقظ على صوت صراخ قطة صغيرة كانت تضربها قطة أكبر منها، في شرفة منزل (رمزي)، فانفطر قلبه بسبب صراخها وبكل براءة أخذ مفاتيح والده ظنا منه أنها تصلح لجميع الأبواب، وذهب لينقذها، فحدث ما حدث.

وعندما سمع (رمزي) ما قاله الطفل، أحس بأن شاحنة نقل كبيرة محملة بالثلوج من أقاصي القارة القطبية، أنزلت حمولتها على رأسه..

أثناء توجه (رمزي) إلى منزله، ألتقط بعض همسات النمامين.

منهم من يحمل المسؤولية لوالد الطفل.

حيث سمع مدام (غادة) زوجة الاستاذ المحترم الخلق (مدير الركلام في احد الملاهي الليلية) تقول أن والدته هي التي قامت بتحريضه لكونها امرأة غير سوية. وذلك لأنها لمحتها ذات مرة من أحد النوافذ الصغيرة في احد ليالي الخميس، ترقص لزوجها.

\*يا لهذا الفعل الشنيع كيف لهذه المرأة الفاجرة، ان ترقص في منزلها؟؟؟

\* واما من؟

\* زوجها!!!

\*يا للفضيحة

وأخذت تنتشر الشائعات على الطفل والوالدان، في الحي كالنار في الهشيم.

كل ذلك قبل شروق الشمس.

لحق (سامي) والد الطفل ب(رمزي) قبل صعوده لمسكنه، وطلب منه ان يخبر الجيران بحقيقة ما حدث، حتى لا يتأثر ابنه بنظرات البعض له.

عندما اخبرهم (رمزي) معظم من سمع قصة القطة اخذها بسخرية وضحك.

حتى صار اسم الباش مهندس (سامي) (أبو قطة).

حتى بعض الاطفال لم يرحموا ابن (سامي) ظلوا كلما رأوه أصدروا صوت المواء.

ذلك الطفل النبيل البريء الذي لم يتحمل صراخ وأنين كائن ضعيف وفعل فعلته الملائكية. ولكن قد خانه فيها عقله، ليس نقصاً منه، لكن لصغر سنه أصبح مسخرة لمن هب ودب.

بعد أيام قرر المهندس (سامي) الانتقال إلى حي آخر خوفاً على قلب ملاكه الصغير أن يشوبه بعض القطران الأسود الذي يطفح من قلوب من أعماهم الظلام.

.....

## الفصل الثاني

### (زي غريب)

ظل (رمزي) بضعة أيام في حالة يرثي لها.

قرر عدم الذهاب إلى عمله، معتمداً على شريكه (نوح) في مباشرة أمور الشركة.

لكن فجأة تدخل (ديانا) زوجة (رمزي) عليه غرفته لتخبره بمجيء (نوح) صديقه وانتظاره في الصالون، بعد أن قدمت واجب الضيافة له، مشروبه المفضل القهوة السادة وعليها ورقة نعناع طازجة.

يخرج (رمزي) إلى الصالون بعد ارتدائه ملابس تليق بمقابلة الضيوف.  
حتى وإن كان أعز أصدقائه.

يتبادلان السلام والتحية مصحوباً بالعناق.

يحاول (رمزي) ألا تلتقي عيناه بعين صديقه، ذلك الرجل ذو الشخصية القوية والوجه المصبوغ بالحدة، رغم قصر قامته وتلك الأكتاف العريضة، وذلك الانتفاخ الظاهر في باطنه والذي يسميه الناس (كرش).

فيبدأ (نوح) بالتحدث لصديقه وصوته ملئ بالشفقة.

مالك يا راجل فيه ايه؟، انا لما (ديانا) مراتك كلمتني وقالتلي على الحالة اللي انت فيها، مكنتش مصدق، معقولة!! احكي لي.

فيحكي له (رمزي) الحكاية من البداية، وصوته ملئ بالحزن، وأوضح له سبب حالة الغضب التي تملكته بسبب تذكره واقعة الرجل المخمور وخوفه من تكرارها وخاف أكثر لان هذه المرة لم يكن وحيداً، بل أصبح له أسرة .

صمت (نوح) قليلاً، ثم واسي صديقه ونصحه بأن يذهب إلى الإسكندرية مع أولاده، ليقضوا عطلتهم الصيفية ولينسي ما حدث، ولا يقلق على سير العمل في الشركة أثناء غيابه.

يأخذ (رمزي) بنصيحة صديقة، ويخبر زوجته بأن تجهز هي والأولاد للسفر غدا الثلاثاء. يستيقظ جميع من في المنزل باكراً كعادتهم، ويبدأ الأطفال الثلاثة من فرحتهم واشتياقهم للسفر لروية البحر بمساعدة والدتهم في التجهيزات الأخيرة.

ينطلقوا جميعاً في السيارة الملاكي الخاصة ب (رمزي)، وأثناء رحلتهم إلى الإسكندرية يظل الأطفال في حالة فرح وبهجة طيلة الطريق، ويرددون بعض الاغاني حتى انسجم معهم (رمزي) وزوجته.

يصلوا بعد رحلة استغرقت نحو ساعة ونصف إلى أحد الشواطئ حيث يمتلك (رمزي) شاليه قد اشتراه منذ خمس سنوات وفور فتح باب الشاليه.

" يستقبلهم ببعض العلامات على وجوههم وأيديهم وملابسهم. مع القليل من السعال جراء استنشاقه، الصديق الوفي، الذي يحمي اثاث المنازل من برد الشتاء وربما يأكل بعضها، أثناء غيابهم (دقيق التراب) وربما لديه فوائد أكثر لا نعلمها".

تزين جدران الشاليه بالألوان الزاهية وبعض اللوحات الفنية المعلقة بنظام، كمتحف صغير لأحد الهواة، وآلة الكمان والفلوت المعلقان في أحدي الزوايا.

تبدأ الأسرة بترتيب المكان وتنظيفه من (الصديق الوفي) ذو الملمس الحريري والرائحة المميزة) ثم يذهبوا جميعاً إلى الشاطئ، الذي يبدو عليه الهدوء لقلة وارديه.

يقضوا يومهم الاول بمرح وسعادة، وقبل غروب الشمس، يتوجهوا جميعاً إلى "الشاليه".

يغط في النوم الابن الأكبر ثم تتبعه اخته الصغيرة، ويظل الابن الأوسط جالساً على الأريكة بجانب أحدي النوافذ المظلة على الشاطئ، ويتسامر (رمزي) و(ديانا)، ويحيط بهم صوت السيدة (فيروز) لاحدي أغانيها (ع هدير البوسطة) الصادرة من الكاسيت بجانبهم، ويراقبان الشمس وهي تغرب، ذلك القرص الذهبي المتلألئ يسقط في قلب البحر بكل هدوء.

تتنسم أنوفهم برائحة البحر الفريدة، يطلب الابن الأوسط من أباه أن يخرج ليلعب في الرمال على الشاطئ، فيوافق أباه على أن يظل مراقبا له من النافذة، ثم يتابع حديثه مع زوجته ويتذكران أيام الخطوبة، وبعض المواقف المضحكة التي تعرضوا لها.

تقاطع خلوتهم بنتهم الصغرى بعد استيقاظها من النوم، لتطلب الطعام من أمها، فتقوم الأم لتحضّر الطعام، ويجلس (رمزي) مع أبنته يلاعبها.

فجأة تضعف الإضاءة ثم تعود مرة تلو الأخرى سريعاً، والكاسيت يعلو صوته ثم ينخفض. تهب رياح ساخنة بعض الشيء، تتبعها رياح باردة جداً، مصحوبة برائحة غريبة تشبه رائحة الريحان.

يغلق الشباك جراء الرياح الشديدة، وتصدر بعض الأصوات التي تشبه الرعد ودق الطبول الضخمة وبعض الصفيير ممزوجة معا وكأنها سيمفونية، يحضن (رمزي) أبنته الخائفة.

ثم يفتح الشباك ليطمئن على ابنه الذي يلعب على الشاطئ، فينصدم من ما راه فيعطي طفلته لامها بالمطبخ.

يخرج متجهاً نحو ابنه وهو يمسح المنطقة بأكملها بعينه، ويترقب إذا كان هناك أحدا يراهم. يطمئن قليلاً عندما لا يجد أحد، فيصل إلى ابنه ليجد طفلاً في مثل عمره ملقي أمامه على الأرض يرتدي زياً غريباً وتفوح منه رائحة الكافور مختلطة بالرائحة الغريبة التي تشبه الريحان، وعلى جبينه علامة زرقاء اللون.

يسال ابنه بصوت يكاد لا يخرج من حنجرته.

مين ده؟؟، و عملت فيه ايه؟؟

فيرد عليه وصوته مملوء بالخوف.

معرفش. واحد شكله غريب كان شايله، وكانوا نازلين من السما سابه واختقي.

ثم صمت فجأة، وغرقت عيناه بالدموع .  
فيرد (رمزي) على ابنه يقينا منه أنه يكذب.

سما!!

شكله غريب!!

اختقي!!

فيجس نبض الطفل الغريب الملقى على الرمال، فيجده قد مات.  
فتهب عاصفة من التساؤلات والتخيلات في رأس (رمزي).

ماذا سيفعل اذا ثبت أن ابنه قد قتل ذلك الطفل ؟

هل سيتترك ابنه يضيع مستقبلة؟

وتتدمر سمعته أمام الناس لكونه أباً لطفلاً قاتلاً لطفلاً مثله.  
حتى إذا ضحي بنفسه من أجل ابنه واعترف بالباطل، بقتله لذلك الطفل وليس ابنه.

فمن سيعتني بأسرته من بعده ؟  
من سيعتني بزوجه قاتل طفل؟  
من سيعتني بأطفال لأب قاتلاً لطفل؟  
فينظر مرة أخرى حوله ليتأكد أن لا أحد يراه.

ثم يقرر أن أفضل خيار له أن يرمي ذلك الطفل الغريب المقتول على يد ابنه في قلب البحر ليحمي نفسه، ويحمي ابنه من تلك الكارثة التي حلت بهم.

قرر أن يعيش حاملاً لعذاب الضمير فضلاً عن الحلين الآخرين.  
فيقذف به إلى البحر، ثم يستدير ويأخذ بيد ابنه ويتحرك إلى الشاليه.

يقف في وسط الطريق، ثم يميل إلى ابنه، ويمسح له دموعه، ويهمس له في أذنه، الا يعرف أي مخلوق شيئاً حتى والدته وأخوته عن ما حدث، ويظل سراً بينهم للأبد.

فور دخوله للشاليه، يأمر زوجته بالاستعداد للرحيل الآن متجاهلاً شلال الأسئلة المتدفق منها.  
متحججاً بأنه تذكر شيئاً مهم في العمل، ويجب تواجده في الشركة في أسرع وقت.

وسط شكوك زوجته واستغرابها إلا أنها نفذت ما قاله، وبدأت بالأعداد للرحيل ....

وأثناء تحركهم بالسيارة ينظر الابن الأوسط إلى الشاطئ وتتسع عيناه من الدهول .

يرى الطفل الميت ذو الزي الغريب مرفوعاً فوق المياه بعض الشيء متوجهاً في الهواء للشاطئ وكأن شيئاً غامضاً خفياً يحمله.

.....

**تمت**

يتبع!!!!